

والمداء بعد وفاة عاھلھا المحتضر فيخاف عليها ان يحرقھا التیار وعلى استقلالھا ان يضحى في خبر كان ويعني اثرًا من آثار التاريخ والله اعلم

روحانية النفس

نظر فلسفي للاب ربه دورثو مدرس القلعة في كلية القديس يوسف

سبق الشرق في سنة الماشرة (١١٠٧ ص ٤٣٣) فنشر مقالين مطوَّرتين في خلود النفس وثباتها بعد انفصالها عن الجسد بالموت الطبيعي . على ان هذا البحث يرتبط ببحث آخر يتصل به اتصالاً لا ينفصم البتة نعني به روحانية النفس فاردنا ان نخص به هذه المقالة فتكون كتبتة لذلك المطلب السابق

وكأني بالقارى يوتقني في اول كلامي ويقول : ماذا تنوي بروحانية النفس اتقصد بذلك كونها روحاً من الارواح العلوية وانها مجردة عن الجسد ونحن نزاها مشتركة بالجسد فتلزمه وتقال منه كل مداركها ولولاه لا عرفت شيئاً من عالم الكون واذا ضف هذا الجسد وأصيب بأذى ما انعكس الفعل في النفس فكلفت عن العمل وعجزت عن اقام وظيبتها السامية

نجيب على هذا الاعتراض اننا لا نخلط بين الارواح العلوية والنفس البشرية فنجعل روح الانسان في سلك الملائكة . كلاً فان تلك الارواح النورانية خلقها الله كجواهر مجردة عن الهيولي خصها بكل ما تحتاج اليه في حياتها السامية وكيانها الشريف الذي يجعلها اكثر شهاً به تعالى واقرب الى مقامه الجليل . اما النفس فرتبتها دون مرتبة الارواح الملائكية خاتما الله لتحد مجده هيولي فتشركه بجياتها وترقيه فوق رتبة بدن الحيوان الاعجم ولولاها لكان عنصرًا جامدًا لا يختلف عن بقية العناصر الطبيعية

على ان الله اذ جعل النفس مبدأ حياة الجسد افاد النفس بذلك فوائد تريدها ارتباطاً بالجسد وحيًا له وذلك انه قرنها بمشاعر منظورة لتكون كجسر بينها وبين العالم

المتعمق بهته مُقدِّم مجمع ثانٍ في المداين سنة ١٢٠ لاثبات عقائد الايمان وحرم نسطور وفيه ايضاً اصبغت جهات الجزيرة ولاسيما الرقاق العربي كصيد آخر يبلغ فيها عدد الزهاد الى ما تجاوز كل احصاء. فكانت الاديرة كمدن واسعة يسكنها الوف من الرهبان يقضون فيها الحياة في الصلاة والشغل. ولو واجعت الفصل الذي خصه البكري في معجم ما المستعجم (٣٥٨ - ٣٨١) وياقوت الحموي (٢١٠: ٢ - ٢٣٦) وغيرها بهذه الاديرة لرأيت ان بلاد الرقاق كان لها نصيب كبير منها وهو لم يذكر غالباً الا ما ورد اسمه في شعر الشعراء كديار الابلق في الامواز ودير ابي يوسف فوق الموصل قريب من بلد وديارات الاساقفة بالنجف بين قصرى ابي خصيب والسدير وديري الاسكون بالحيرة وقرب واسط كانت فيها مدارس للعلوم الدينية ودير لشبوني قرب بغداد ودير الاعلى بالموصل على جبل مطل على دجلة ودير باشهرا بين سامرا وبغداد ودير باعربا بين الموصل والحديثة على شاطئ دجلة ودير مختايل ودير الثالب منسوب على ما نظن الى بني ثعلبة المتضرين قريب من بغداد عند الحارثية ودير الجرعة بالحيرة ودير الحوات بكربلاء ودير الخنافس على قلعة جبل كسرف على دجلة ونيشوى ودير دُرْتَا غربي بغداد ودير الدهدار بنواحي البصرة ودير الترتدور في الجانب الشرقي من بغداد ودير ساور غربي دجلة ودير سالو وكلاهما قرب بغداد ودير السوسي بنواحي سر من رأى (وهي سامرا) ودير الشا بارض الكوفة ودير صباعي شرقي تكريت ودير الطراويس بسامرا ودير العاقول بين مدائن كسرى والعمانية ودير المعجاج بين تكريت وهيت ودير المثلث ودير فثيون وكلاهما بسامرا وديري القباب وقوطا من نواحي بغداد ودير القيارة عند الموصل ودير كوشير بين الري وم ودير كوم من اعمال الموصل ودير مسار فثيون بالحيرة اسفل النجف ودير مسار سرجيس قرب سامرا ودير متي قرب نيشوى ودير مديان على نهر كخايا قرب بغداد ودير مر جرجس بالزردة قرية من منتهات بغداد ودير بر بادري من نواحي سامرا ودير مر يُحْتَمَأُ جانب تكريت ودير ملكيساوا فوق الموصل ودير هزقل في جهات البصري وغيرها ايضاً تؤيد كثرتها ما قلنا عن انتشار النصرانية في الرقاق والعرب لم يعرفوا فقط هذه الاديرة ورووا اسماءها في اشجارهم او ذكروها في حجة اخبارهم بل نُسب كثير منها اليهم او لوقوعها في ديارهم او لانهم عُتروا

أمر مادةٌ وهيولي أو هو غير ذلك فهنا الشكل الذي تختلف فيه آراء الثلاثة .
 فيقول الماديون ذلك جسمٌ ومادةٌ إنما هو . من بعض تكييفات الدماغ وتخرج ذراته
 وحركة دقائقه . أما الروحانيون فأنهم يزيفون قولهم وينكرون قطعاً كون الفكر
 جسماً ومادةً لان الجسم ما لاح لحواسنا وما ادركته الحواس كوضوعها الخاص
 ويعلمون على خلاف ذلك ان الفكر خارج عن المادة وان النفس التي تطله هي جوهرٌ
 روحانيٌ يمكنها ان تجيء بمنزل عن الجسد والمادة

فترتب اذن على الفيلسوف الروحاني ان يثبت ان الجسد او الدماغ لا يكفي
 لتعليل الفكر والادراك وان الفكر والادراك لا بُدُّ لهما من مبدأ اسى واشرف
 يكون بسيطاً خالياً من الاجزاء والمساحات لا يتأتى بالمادة في ذاته الجوهرية ولا
 يحتاج الى مادة في كيانه الخاص . اي يجب عليه ان يبين ان ما يدعوه الناس بنفس
 ليس هو بجم ولا بجزء من جسم ولا عرض ولا يحتاج في وجوده الى قوة جسيمة
 بل هو جوهر بسيط غير محسوس بشي من الحواس يقوم بذاته ويتسم بعض اعماله
 بمنزل عن الجسم . فنقول :

ان الدليل الاول على قولنا انما هو ما معنا اليه في المتدمات وينبغي ان نوضحه
 هنا بكل جلاء . اعني ان في الانسان مبدأً متكرراً مدركاً للمعقولات والكليات وهذا
 المبدأ هو النفس فالنفس اذن رومانية

ان دخلت الى بعض المخازن في بيروت وقمت عينك في هذا الطرف على اجناس
 من الطنائس المختلفة الصور والاشكال والالوان والاقيسة . وفي ذلك على ضروب من
 الاقشة التي لا يفهم بعدها احصاء . وفي جانب ثالث ترى الاسرجة والقناديل المتباينة
 الاصناف ذات الهيئات العديدة وهلم جزاً . فهذه الطنائس وهذه الاقشة وهذه
 السُرُج يختلف كل منها بالمكان والوضع والصدرة والهيئة فيمكن تمييز كل منها عن
 الآخر بعلامة ما يستدلُّ بها عليه . الا ان في كل صنفٍ ايضاً شيئاً عموماً يشله
 ويتبادر العقل اليه وذلك جوهره الخاص اعني جوهر الطنائس وما به تماز الطنائس
 عن الاقشة وما يفرزها عن القناديل وجوهر السُرُج وما يجعلها سرجاً ليست احذية .
 فهذا الجوهر الذي هو واحد في كل افراد النوع هو الذي عقله فكري دون بقية
 مميزاته الحسوسة ويطلق عليه اسم الجنس فيقول « الطنفسة » ليس « هذه الطنفسة »

« والقماش » ليس « القماش القلائي » « والسراج » لا السراج ذو الصفة المعروفة :
فهذا المعقول العام الذي يستخلصه العقل من المحسوسات هو المعنى الكلّي الذي
يجرّده من كلّ الميزات للمحسوسة فيطلقه على الجنس ويخبر به عن سائر المفردات
فيقول : هذه طنفسةٌ وذلك قماشٌ وذلك سراجٌ أي ان هذا الفرد يدخل في ذلك
الجنس العام الذي جرّده عقلي من كلّ مفردات الطنافس والاقمشة والسرّج . ثمّ
يقابل بين جنس وجنس فيقول « الطنافس امتن من الاقمشة » و« السراج اخص
من الطنافس » .

نعم أنّه يوجد اختلاف بين العالم والجاهل وبين الرجل الكهل والولد في درجة
معرفة ذلك الكلّي فالعالم يعرف من خواصّ الشيء ما لا يعرفه الجاهل ويكشف
الكلّ ما لم يكشفه الولد لأنّ الجميع دون اختلاف عتقوا جوهر الشيء وجرّده
عن محسوساته وادركوا كنهه وماهيته وبذلك تفرّدوا عن الحيوان الاعجم الذي لا
يعرف الا « هذه الطنفة » و « هذا الانسان » و « ذلك البيت » لأنّ الحيوان لا
يدرك الا المفردات دون الكلّيات فيطبع في مخيلته وذاكرته صور المحسوسات
فاذا رآها بذاتها او بأشباها تأثّر منها .

فشتان اذن بين الحيوان الاعجم والانسان فانّ كليهما يشاعرهما يتناولان صور
الاشياء ومفرداتها مع خواصها الميزة لها . كلاهما يرى في الكون افراداً عديدة من
الجماد ومن النبات ومن الحيوان ومن البشر الا أنّ الحيوان يقف عند هذا الحدّ فلا
يتعداه لأنّ دماغه كرامة يمثّل في حواسه صور الاشياء كما هي في الكون بميزاتها
المحسوسة امّا الانسان فانه يحطّر الى ما وراء ذلك فيعرف جواهر الاشياء دون
اعراضها يعرف مثلاً « الانسانية » ليس فقط الانسان ويعرف « الحيوانية » ليس
فقط الحيوان وجوهر النبات وما يفرزه وكلّ ذلك ليس بوجوده في الطبيعة اذ
الجواهر في الطبيعة لا تفصل عن اعراضها من كيف وتمّ وزمان ومكان ومساحة
وصورة فالعقل بادراكه الجوهر وقطعه النظر عن كلّ هذه الاعراض يفعل فعلاً خاصاً
به يمزّل عن الحيوان مهما كانت درجة ترقّي الحيوان في الذكاء والنباهة
وما قلناه عن الجواهر والكلّيات يصحّ قوله في اسماء المعاني وما لا يقع تحت
الحس كادراك النفس للواجب الوجود الله سبحانه وتعالى وللنفس وللادواح

وكذلك الكيفيات كالطول والسمك والعرض والكبر والقوة والضعف والحلاوة والمرارة والحياة فان كل ذلك مما لا يتجسم فتدركه الحواس

واخرى من ذلك المعقولات الضمنية التي ما وراء الطبيعة كالوجود والعدم والإمكان والوجوب والحادث والضرورة والحق والباطل والجوهر والعرض وغيرها من المعاني الثرىفة التي يدركها العقل ولا يأخذها من الحس او يجدها في الدماغ

فان كانت للانسان قوة كهذه تمكنه من ادراك الكليات والمعاني التي لا يجدها في الطبيعة بل يعقلها بفعله الحاض دون الحواس فلا بد من القول بخبر مبدأ سامياً خارجاً عن الحواس مجرداً عن الجسم وبمباراة اخرى يجب القول ان فيه نفساً روحانية وان سألت كيف نشبت كون النفس بادراكها للكليات والمعقولات هي روحانية وليست تلك القوة فيها جسيمة مادية

الجواب على ذلك ان العمل يدل على العامل اذ لا بد ان تكون نسبة بين الصانع وصنعه فان كانت نتيجة فعل العقل هي تجريد الحسومات عن مميزات الميرلية وارضافها المادية لعقلها في حالة مجردة عن المادة فينبغي القول ان ذلك العامل هو ايضاً مجرد عن المادة وان النفس التي تفعل ذلك بعقلها وقوة ادراكها هي غير مادية اي انها روحانية

وهنا يحسن بنا ان نزيد قولنا بتعام كبار الفلاسفة الاقدمين الذين وضعوا مبدأً عمومياً يشمل كل معرفة سواء كانت حية او عقالية فقال ديموقريطس: «لا يعرف الشيء الا شبيهه» فالحواس تدرك الحاسة لشبه بينهما فان العين تتناول مثلاً الالوان والسمع يدرك الاصوات والشم الروائح لما بين الحواس ومدركاتها من التناسب لكن العين لا تتأثر بالاصوات ولا الاذن بالروائح ولا اللمس بالالوان لعدم الشبه بينهما

فعلى هذا المتوال يجب القول ان العقل الذي يدرك الجواهر غير المادية هو ايضاً مجرد عن المادة. قال ارسطو في كتاب النفس: «ان العقل باذراكه للمعاني وللجواهر المجردة يصبح كأنه هي ويتكيف على نوع ما بكيفية كل ما يدركه» وقال شمس المدارس القديس توما اللاهوتي: «ان المعرفة الصحيحة الصادقة هي تشابه بين العارف والمعروف وعلى قدر ما تريد هذه المعرفة للمعقول يزيد هذا التشابه»

وقال ابن سينا: « ان العقل كلما تباعد عن المادي البدئية وتداخل في ذاته وتخلّى من الحواسّ لزيادة قوّته وتاماً وكهلاً وظهرت له المقولات البسيطة فهذا دليل على انه اكرم جوهرأ وافضل طباعاً من كل ما في هذا العالم من الامور الجسميّة »

والحق يقال انك اذا اخضت عن معقول العقل اي المعنى المجرد الذي ادركه ثم قابلت بينه وبين افراد المحسوسات التي استخلص منها ذلك المعنى وجدت انه لا ينطبق مع واحد منها بالخصوص لكنه يوافقها كلها عموماً وكلاهما تماماً اعني انه ينبغي عن موضوعه كل ميزة تختص بالتردد دون العوم لأن تلك الميزة هي التي تنظمه في عالم الكون والمخلوقات المادية

وهذا تقط حجة بعض الماديين الذين مثل تين (Taine) اطلقوا على هذه المادي المجردة اسم « الصور العسومية » التي تمثل بعض خواصّ المحسوسات فتشمل طائفة منها الا انهم وهموا اذ جعلوا تلك الصور كالمادي الكلية وشئنا بينها كما يلوح لاول وهمة . ويجدر بنا هنا ان نذكر قول افلاطون في كتابه المسمى فيدون (Le Phédon) : « ألسنا عرفنا المساواة بنظرنا الى اشجار متساوية وحجارة متساوية ؟ ومع ذلك ليست المساواة احدى تلك الاشجار او احدى تلك الحجارة . وليست المساواة في كل شجرة كطولها او عرضها اللذين نطلع عليهما بالنظر واللس فاذا نظرت العين شجرتين متساويتين ليست العين التي ترى المساواة اي النسبة بينهما لكن العقل « لأن المساواة لا تقع تحت النظر كما اننا لو قلنا $2 \times 2 = 4$ لم نحكم بهذه المساواة لنظرنا النسبة او لسعنا بها او لمينا لها وليس في الدماغ قسم هيرولي يشمل هذه النسبة ويقابل بين اقسامها لأن النسبة غير هيرولي كما هو معروف

ولعل معترضاً من الماديين يتصدى لنا فيقول عينا ترعم ان عقل الانسان مجرد عن المادة وبه تتحق النفس ان تدعى روحانية أفلا ترى ارتباطاً مع المادة والاعراض المادية فان واصل العقل عمله مدة ابر اطال الفكر زمناً أصيب الرأس بالم وكّل عن الشغل وكذلك يُصاب العقل بكل عاهة تنال الجسم حتى انه في بعض الاحيان يشرّد ويهذي ويمس بشعوره . وكذلك قد وزنوا عدد اقيسة الحرارة التي ينتقدها الدماغ بالشغل العقلي . كما انك ترى العالم بعد ساعات من الدرس يحتاج الى

التوت كالعامل الذي اشتغل بالماديات . فهذه كلها أدلة واضحة أن العقل مرتبط بالجسم وخصراً بالدماع وأنه تحت حكمه كبقية الحواس

الجواب على هذه الاعتراضات كلها وغيرها أيضاً شبيهة بما أننا لنا من قبة الفيلسوف ديكرت (Descartes) الذين ينفون كل مخالطة بين النفس والجسد فبالعرا بذلك حتى خرجوا الى التعرابة والاستحالة وإنما فتر مع كل الفلاسفة الروحيين الصادقين بأن ارتباط النفس مع الجسد لازم لازب للنفس في كيانها الطبيعي وحالتها التي خلقها الله فيها اعني ان تحيا في الجسد ومن ثم تحتاج النفس الى اجهزة الجسم وحواسه كشرط سابقة تستعين بها لانعام عملها لأن النفس لا تجسد في ذاتها مراد معلوماتها بل تأخذها عن الحواس كما قلنا قبلاً . والفلاسفة المدرسيون (Les Scolastiques) قد وضعوا هذا المبدأ المقر « بأن لا شيء يعقله العقل الا سبق ومر بالحواس » نكن كيانه في الحواس ليس ككيانه في العقل فانه يكون في الحواس منفرداً مكيئاً بكيفيات مادية من صورة وهيئة وزمان ومكان اما كيانه في العقل فهو على هيئة اسى واشرف اذ يتجرد عن كل تلك الصفات المادية والمهيوية الساقطة ليرتقي الى مرتبة العقولات الروحانية ١١

وعليه فلا غرر ان يُصاب العقل بمصاب الحواس وعاهات الجسم لأن الحواس ان ابت خدمة العقل لأذى لحق بها من ضعف او ميس قصر العقل عن فعله كما ان الحائك لا يستطيع ان يحبك النسيج ان لم يسبق النزالي ويجهز له غزلاً مناسباً للحياكة

ولقد كان اعتراض المعترضين ثابتاً مقنعاً لو امكروهم أن يبينوا ان العقل بمنزل عن الجسد لا يقوى بالسرير والنظر والدرس اعني بملازمته فعله الخاص وذلك بخلاف الحواس التي اذا قويت عليها محوساتها اضررت بها . فان العين مثلاً اذا نظرت الى نور ساطع كالشمس لتبهرت ولا تعود ترى شيئاً آخر مدة برهة من الزمان وكذلك السمع ينفو اذا سمع صوتاً مزعجاً ، كصوت ساعة وقس عليه بقية الحواس . اما العقل فعلى خلاف ذلك على قدر ما يتعمق في المعلومات ويزيد تجرداً في العلوم

(١) راجع كتاب: نقشة الكردبال مرتبة (Cardinal Mercier: Cours de Philosophie)

تضاعف اهليته لما فكل مقول جديد يحصل عليه يزيده قوة على قبول غيره دائماً ابداً بلا نهاية

أما تحليل هذا الفرق فلأن الحواس اذا تأثرت من مادتها تأثيراً شديداً أصيبت اعصابها من ذلك التأثير ببعض النساد فتحتاج الى هنيهة من الزمن لتعود الاعصاب الى حالتها الطبيعية لتقبل تأثيراً جديداً. لما العقل فاذا ادرك بالفهم قضية زاد فوره واستطاع ان يدرك ما هو اسى وارفع من المعلومات

*

وهذا البرهان الذي استندنا اليه لبيان روحانية النفس اي ادراك العقل للكليات يزيد وضوحاً وقوة اذا خصصناه بالقياس المنطقي الذي تجده في كل كلام البشر سواء كان ذلك القياس مركباً من ثلاث قضايا موضحة كقولنا: « ان القضية محبوبة والمدل قضية فالمدل محبوب » او كانت القضايا مقدرة كقولنا: « ان قضية المدل محبوبة ». فهذا القياس على اي صورة كان هو من اقنع الادلة على روحانية النفس يقوم القياس بان يقابل العقل قضيتين مع قضية ثالثة فاذا وجدتهما موافقتين لها حكم بتوافقهما بينهما. فان قابلت مثلاً الحب مع القضية والمدل مع القضية فوجدت ان كل قضية محبوبة وان المدل قضية اقتضى الحكم بان المدل محبوب. فالقياس يتركب اذن من مقدمتين كبرى وصغرى ثم نتيجة اعني ثلاث قضايا مرتبطة ارتباطاً تاماً لا يسلم العقل بالقضيتين الاولين الا وجب عليه التسليم بالتالثة فاذا كان الامر كذلك نقول ان العقل يوضع القياس ينبي بروحانيته لانه لو كان كل شيء في الانسان مادي هيرلي لما امكنه ان يجد التناسب بين هذه القضايا لابل ما امكنه ان يحكم في المقدمتين. ألا ترى ان المادة تشغل مكاناً فتستد بطوراً وعرضاً وسكاً فلو عقلت معنى لعقلته مجزاً في اجزائها الميولية وما استطاعت ان تحكم في النسبة بين تلك الاجزاء بل ينتج من هذا ان النفس العاقلة هي بسيطة لا اجزاء لها لانها هي تحكم بعقلها في جميع المركبات فان تعددت مدرجاتها بعدد المركبات بطل عملها. قال ابن مسكويه في الفوز الاصر (ص ٣٨) :

أما أنه لا يليق ان تكون المدرجات بعدد المركبات فهو ظاهر وذلك ان الحاكم في جميعها واحد لأن شيئاً واحداً في الانسان يحكم في الصغير انه صغير وفي الكبير انه كبير وهو

المالك في الألوان والاشكال والعلوم والروائح ولو كان المدركون مختلفين لما صح أن يحكم واحد على ما ادركه الآخر

ولا يقولنَّ الفيلسوف المادّي ان النفس هي واحدة لكنهما تدرك المدركات المختلفة بقوة كثيرة فتدرك مثلاً الامور الميولانيّة البسيطة بقوة والامور الميولانيّة المركبة بقوة اخرى فهذا قول باطل لأننا نرى النفس العاقلة تريف الحس فيما يفلط به وكثيراً ما يفلط وترده الى ما حكم به العقل فترى العين مثلاً الشيء من بعيد صغيراً والعقل يحكم بحكمته كبير جداً . وذوق المريض يرى الخيطام مرأً ويحكم العقل بجلاوته . فالنفس الروحانيّة تردّ في كل ذلك حكم الحس وترجح حكم العقل . فلو كانت النفس لا تعلم المقول والحسوس بقوة واحدة لما علمت الفرق بينهما ولما ردّت الجميع الى امر واحد لتحكم فيه حكماً واحداً « كما قال ابن مسكويه

فيتج من كل ما سبق ان القول بروحانيّة النفس من المبادئ الرائدة التي لا ينكرها عاقل وان انكرها لا ينكرها الا بمضادة نفسه اذ لا يُدَّ له للانكار من حكم يحكم به ومن قياس منطقي او سوفسطائي يتشبت به وكل ذلك لا يتم الا بنفس ناطقة متعلّقة عن المادّة مجردة عن كل الحسوسات . وهذا ما اردنا اثباته

برجيز الكلام

شَطَطُ الصَّحَافَةِ

خطاب الى كل عاقل منصف

للاب لوبس شيخو البوعي

انها لشريفة مهنة الصحافة ورتبة الكتابة في الهيئة الاجتماعية اذ مجرد الكاتب قلمه لخدمة كل مشروع صالح ركل مسمى حميد من شأنه ترقية الخير العام ورفع شأن الوطن

غير ان هذا القلم اشته بسيف ذي حدين اذا وقع في ايدي الجهال ولبت بصله الاغرار فربما كان آفة وبيبة وآلة مشنومة يجرح بها اللاعب نفسه ويضر بغيره